

## الفصل الثاني

### [ العاشر ]

وقفنا نحن السبعة ننظر لما أمامنا بذهول غير مصدق.. لم نكن سبعة فقط، بل عشرات العشرات من الرجال والنساء ممن وقف معنا في تلك الساحة الواسعة..

خلفنا، ربضت سفينة فضائية على شيء من الضخامة.. يبدو أنه يمكنها حمل المئات في قلبها دون ضغط كبير.. فبخلافنا، ولا يمكنني عدّ العشرات الذين وقفوا حولي، كان هناك أيضاً العشرات من الحراس ممن قدموا معنا في السفينة ذاتها..

كانت عدة أيام قد مرت علينا منذ استيقظنا.. والآن، بعد وصول السفينة الفضائية لهدفها، وجدنا أنفسنا نقف وسط ساحة كبيرة، نتنفس هواء الكويكب دون أجهزة خاصة، وقد كان نوعاً ما منعشاً، ونتأمل المساحات الشاسعة الصخرية المحيطة بنا وفي الأفق غابات خضراء كثيفة..

كان ذهولنا كبيراً مما نراه حولنا بحيث عقد ألسنتنا، لكن عندما وقف الرجل الصارم أمامنا عاد الواقع إلينا.. مهما كان جمال ما نراه.. فنحن لسنا هنا لنستمتع به.. وقد كان ما نراه جميلاً بحق.. قال الرجل الصارم، الذي سمعنا أحد الحراس يناديه بالقائد، وهو يقف أمامنا محاطاً ببضع حراس مسلحين بأحدث الأسلحة "اليوم ستقضونه في برنامج التهيئة الخاص بالمؤسسة.. وبعدها سيتم تقسيمكم لمجموعات وتوزيعكم على المواقع المختلفة في الكويكب حسب حاجتهم لكم.. لكن أتمنى ألا يفكر أحدكم بأي عمل أحمق لأننا لسنا هيئة إصلاحية، ولا يهمنا ما ترغبون به وما يريحكم.. أنتم سجناء، كما ولابد قد خمنتم، وقضاء ما تبقى من حياتكم على هذا الكويكب هو أفضل حكم قد تحصلون عليه.. كل ما يهم المؤسسة هو أن تحصل على أقصى فائدة منكم.. ومن كان عديم الفائدة فلنا تصرف آخر معه.."

جاوبه الصمت التام والنظرات الحذرة من الجميع، ثم نادى الرجل مساعده وقال "ابدؤوا البرنامج فوراً بلا تأخير.. وأعلمني بالنتيجة بعد الانتهاء.. سأكون في مبنى الإدارة.."

وغادر دون أن يلقي علينا نظرة أخرى.. فيما سمعت الرجل الأجش يميل على الهادي متسائلاً "أتعلم تفسيراً لكل ما نراه حولنا؟ لم أعلم من قبل أن الكويكب صالح لحياة البشر"

قال الهادي بتعجب بدوره "لقد قرأت شيئاً ما من هذا فيما مضى ولم يُمَحَ من ذاكرتي.. لكنني لم أتوقعه بهذه الصورة"

قاطعهما المساعد وهو يقول بصرامة بلغة نايب بدوره "لا محادثات جانبية.. اتبعوني بصمت"

لم يكد ينهي كلماته، بعد أن غاب الرجل الصارم، حتى فوجئنا برجل ضخم مليء بالوشوم يركل حارساً قريباً منه ويركض بأقصى ما يستطيع بغية الخروج من الساحة التي كانت محاطة بسور ولها بوابة وحيدة.. لم يتردد بضع رجال في اللحاق به مستغلين الفرصة النادرة.. وللعجب لم يتحرك أحد من الحراس أو يوجه سلاحاً تجاههم.. فقط وقف المساعد ينظر لهم وهو يتحدث عبر جهاز اتصال.. ولم يمهلهم الوقت للخروج من الساحة والهرب، إذ سرعان ما تهاوت الأجساد وهي ترتجف وأحدهم يطلق صيحة ألم..

وإزاء نظراتنا المندهشة، قال المساعد وهو يشير للحراس الذين اقتربوا من الأجساد التي خمدت أخيراً "لا يحاول أحدكم ارتكاب هذه حماقة مرة أخرى.. لم يفقدوا وعيهم فقط، لكن مرت بأجسادهم شحنة كهربائية كافية لإيلاهم بشكل لن ينسوه مرة أخرى.."

وسار أمامنا بصمت، فلم يكن أمامنا خيار في اللحاق به بعدما حدث.. بينما بقي بعض الحراس مع الأجساد الهامدة بانتظار من ينقلها من موقعها.. سرنا عبر الساحة عابرين عدداً من المباني الضخمة حتى دلفنا مبنىً جانبياً متوسط الحجم.. عبارة عن قاعة واسعة تحيطها غرف جانبية.. تجمعنا في القاعة الخالية من أي نوع من الكراسي، فيما بقي الحراس في جوانب القاعة يحرسوننا.. ظلّ بعضنا واقفاً فيما جلس البعض أرضاً ونحن جاهلون لما يراد منا.. جلست أنا أرضاً مستندة على الحائط خلفي والتزمت الصمت كما فعل الجميع.. فوجدت الفتاة الناعمة تجلس قربي وهي تهمس "ما الذي تظنين سيفعلونه بنا في تلك الغرف؟"

قلت هازة كتفي "لا أعلم ولا أهتم.."

نظرت لي بتعجب.. ثم قطع الأحاديث الجانبية التمتع شاشة ظهر عليها المساعد ذاته، بعد أن اختفى من القاعة التي نحن فيها.. وقال بصوت من اعتاد تكرير الكلام كله، وإن حاول إكساب صوته بعض الصرامة "انتبهوا لما سأقوله جيداً.. فلن يتكرر على مسامعكم مرة أخرى، وتجاهله قد يتسبب في ارتكابكم لمخالفات تتوجب عقابكم.. ولن نتورع عن فعل ذلك.."

تبادل الجميع النظرات الصامتة.. حالنا لا يبدو مبشراً أبداً في هذا المكان.. وسمعنا المساعد يضيف "هذه الأساور التي تملكونها تحوي أرقاماً سداسية محفورة.. هي هويتكم هنا، ولن يتم التعامل معكم إلا بها.. والشاشة الصغيرة قربها ستحمل لكم أوامر الإدارة.. إن أضاءت بلون أحمر فهذا يعني استدعائكم من قبل الإدارة.. عندها توجهوا إلى أقرب الحراس إليكم وسيرشدكم إلى أين عليكم التوجه.. وإن أضاءت بلون أخضر فهذا يعني أنكم مطلوبون في المنجم القريب من مسكنكم، عندها عليكم التوجه إليه بغض النظر عن التوقيت الذي تلقيتم فيه الاستدعاء.."

وكما قيل لكم من قبل، وكما رأيتم قبل قدومكم إلى هذا المبنى، مخالفة الأوامر، أو إحداث شغب من

أي نوع، أو التفكير بالتعرض للعاملين والحراس، أو التفكير.. مجرد التفكير في الهرب.. لن يمر أي من هذا مرور الكرام.. ستكون عقوبتكم على قدر ما تستحقونه.. ولعلمكم، هذه الأساور مصنوعة من مادة خاصة.. لا يمكن نزعها، أو قطعها، أو تذويبها.. ولا يمكن إفساد نظامها الإلكتروني بأي طريقة كانت.. ومن يحاول سيرى العقاب الذي يستحقه.."

نظرت للسوار في يدي وأنا أسمعه يضيف "بعد الفحص الذي سيتم عليكم اليوم، سيتم تقسيمكم إلى مجموعات، وستنقل كل مجموعة إلى أحد المناجم المنتشرة في الكويكب.. لا يسمح لكم بالخروج من المسكن الخاص بكم إلا للعمل في المنجم، ولا يسمح بأي حال لأحد بالتجوال في المساحات المحيطة بالمنجم والمسكن.. ولن أكرر قلبي بأن أي مخالفة لهذه الأوامر لن تعفيكم من العقاب.. ليس بدءاً بالشحنات الكهربائية التي ستفقدكم الوعي، وليس انتهاء بالعزل في مبنى العزل القريب لمدة متفاوتة حسب المخالفة التي ارتكبتها.."

ثم قال "والآن، من يرى سواره يلتزم باللون الأحمر، عليه التوجه لأقرب غرفة فحص.."  
انطفأت الشاشة على الفور بعد أن أتم حديثه، فنظر الجميع لأساورهم، قبل أن يتململ بعضهم ويسير بخطى مترددة إلى الغرف القريبة..

فكرت في كل تلك التعليمات التي ألقيت على مسامعنا.. أي حياة سنحياها هنا؟.. هل حقاً سنمضي ما تبقى من أعمارنا هنا؟.. كم سنة سيكون ذلك.. عشرون؟ ثلاثون؟ ستون لمن لم يتجاوز العشرين منا، وهم كثر حولي؟..

حتى المحكوم عليهم بالسجن المؤبد قد يتم العفو عنهم بعد أن يقضي المسجون زمناً طويلاً متحلياً بحسن السلوك.. فماذا عنا؟ هل سيحظى حسن السلوك منا بحريته ويعود لوطنه؟.. أنا واثقة أنني لم أسمع بأشخاص أطلق سراحهم بعد قدومهم للكويكب..

دام الأمر وقتاً طويلاً جداً.. بالنظر لأعدادنا الكبيرة، ولكون الشخص الواحد يستغرق وقتاً طويلاً نوعاً ما في تلك الغرف، فإنني أشك أن ننتهي من هنا قبل انتهاء النهار.. ولو أنني لم أعلم بالضبط متى سينتهي النهار هنا.. لم تكن نملك ساعات يدوية أو على الحائط، ويوم الكويكب القصير مقارنة بالأرض يجعلها معدومة الفائدة..

عندما حان دوري، وقفت وتوجهت إلى أقرب غرفة خالية، ودلفتها مغلقة الباب خلفي.. وجدت في الغرفة رجلاً يرتدي ثياباً مدنية، وفي جانب المكان أحد الحراس مستعد بسلاحه..

لم أعترض بكلمة والرجل ذو الثياب المدنية يجري علي فحوصات متعددة.. يبدو أنهم يتأكدون من صلاحيتنا للعمل الذي سيوكل إلينا.. لكن أليس المفترض أن يقوموا بذلك قبل استقدامنا هنا؟.. نقلت تساؤلي إلى الرجل، ويبدو أنه قليلاً ما يواجه فضولاً من السجناء.. لذلك فقد قال بعد أن غمرني

بنظرات الدهشة "لقد تم فحصكم مسبقاً بالطبع.. هذه الفحوصات تنتم للسابقة، ليتم تقسيمكم لمجموعات متساوية في القدرات على مناجم الكويكب.."

فقلت مستغلة أريحيته في الإجابة "ومن ألبسنا هذه الثياب؟ هل كان ذلك على الأرض؟"

قال مقطباً "أنتم فعلتم ذلك بالطبع.. لكنكم نسيتم ذلك.."

فتساءلت بسرعة "كيف يمكن أن نفقد ذكرياتنا جميعاً دفعة واحدة؟"

سمعت الحارس يقول بغلظة "كفي عن الأسئلة ودعيه يتم عمله بلا تأخير.."

أشار له الرجل ليدعني وهو يعلق "لابد أن يعرفوا.. لئلا يظل التساؤل في نفوسهم.."

ثم التفت إلي مجيباً "هذا يحدث عندما يتم إعدادكم للرحلة الطويلة على متن السفينة الفضائية.. بعض الأشخاص لا يتحملون السفر، بالإضافة للمادة التي تحقق في أجسادكم لتهيئتها لجو الكويكب.. ومن الأعراض الجانبية لهذا هي فقدان الذاكرة المؤقت، بالإضافة لأعراض أخرى.. لكن لا تقلقي، هي أعراض مؤقتة وستزول قريباً.."

صمتُ وأنا أتذكر من الومضات تلك الحقنة التي دفعت بمادتهم المؤلمة في الوريد.. لكنني نوعاً ما لم أثق بحديثه كله.. كيف يمكن أن تظهر علينا الأعراض ذاتها دون اعتبار لاختلافنا وتباين أجسادنا؟.. هناك كذبة تحاك حولنا، لكن لم أطرح أفكارتي تلك وأنا أجده يأخذ عينة من دمي ويفرغها في أنبوب يحمل رقمي عليه..

استمر مدة من الزمن في فحوصاته المملة، ثم ختم على سواري بختم صغير يحمل حرفاً ورقمين.. ثم أشار لي للخروج.. فخرجت صامتة وأنا أتأمل السوار.. هل هذا الختم يحدد المجموعة التي انضمت إليها؟ بودي لو يدعونا نرحل بدل انتظار البقية، وهو انتظار سيطول كثيراً جداً..

\*\*\*\*\*

عندما وصلنا للمسكن، بعد أن أوغل الليل، حسب الأقسام التي تم توزيعنا عليها.. اكتشفتُ أنني في المسكن ذاته مع هؤلاء الثلاثة أيضاً.. يبدو أنني لن أستطيع الفكك من دعر الفتاة المزعج، ولا تعليقات الأجنش التي تغيظني.. حسناً، الثالث مهذب في كل شيء، لكن ربما هدوءه هو الذي يجعل عقلي يغلي أكثر من الآخرين.. فهو لا يشعرني بأنه مهتم بوجودنا في سجن كبير..

كل المناطق التي مررنا بها في تلك المركبة المتوسطة الحجم التي حملتنا من مباني الإدارة كانت تغزوها الأشجار والمساحات العشبية الشاسعة.. فيما كان المسكن يقع في ساحة واسعة وسط غابة مترامية الأطراف، والذي كان عبارة عن غرف أرضية صغيرة الحجم، صبغت كلها بلون أبيض، وقد

صُفَّت دائرياً في المكان محيطة مساحة صغيرة في الوسط عليها بضع كراسٍ معدنية.. تقريباً كان هناك ما يتجاوز السبعين غرفة.. وحول هذا كله غابة على شيء من الكثافة بأشجار متباينة الأشكال.. لم نكن الوحيديين الموجودين هناك، إذ أن المكان كان مليئاً بمختلف الأشكال من الرجال والنساء ممن سكنوا هنا قبلنا، ولا يبدو على أحدهم أي راحة أو رغد.. وجوه متعبة وملابس موحدة كالتي نرتديها، ويبدو على اليدين التي اسودت أطرافها وتشققت مدى قسوة العمل الذي يمارسونه..

قام المساعد المرافق لنا بتوزيعنا للمساكن التي يبدو أنها كانت مأهولة من قبل لكنها فرغت من ساكنيها، ولا أعتقد أن هذا كان بإطلاق سراحهم.. وجدتُ أن مسكني يقع مقابل الساحة المتوسطة مباشرة، وقريب مني كان ذلك الرجل الأجش.. ويقع مسكن الفتاة على شيء من المبعدة مني وكذلك الرجل الهادي..

عند دخولي مسكني، اكتشفت أنه من الداخل يبدو أصغر كثيراً مما هو عليه من الخارج.. لا يحوي إلا سريراً صغيراً إن فكرت بالتقلب فيه فستجد نفسك على الأرض.. وكروسي وحيد خشبي لا يبدو أنه يتحمل وزناً ثقيلاً.. وفي جانبه حمام صغير بالكاد يكفي لوقوفٍ فيه.. طبعاً لن أتحدث عن حالة الغرفة من ناحية صبغها المتقشر ولا أثاثها القديم ولا مرافق الحمام التي تتعفف منها النفس..

فور دخولي، نظرت لوجهي في المرآة المعلقة على الجدار المقارب للسرير.. لم أدرك من قبل أن فاقد الذاكرة لا يقدر على تذكر ملامحه الخاصة.. أم أنني حالة خاصة؟ لذلك، ما إن رأيت تلك المرآة حتى أحسست بحاجة ملحة لرؤية وجهي فيها لعلني أتذكر شيئاً ما مع ملامحي.. لكن عندما نظرت فيها وجدتني أتأمل ملامح فتاة غريبة لا أعرف عنها شيئاً..

لا أعرف كم أبلغ من العمر، ولم أقدر حتى على تخمينه.. هل أنا في العشرينات أم أنني لم أبلغها بعد؟ لا أبدو أكبر من هذا بأي حال.. شعري قصير حتى الكتفين مقصوص بغير عناية.. أحمر اللون بشكل طبيعي فلا أثر لكونه مصبوغاً.. لذلك كان الرجل الأجش يصرّ على مناداتي بحمراء رغم أنني ما فتئت أبدي ضيقي من ذلك.. فشعري كان نوعاً ما ملفتاً للنظر مقارنة بملامح وجهي الأقل من عادية.. عيناى عشبيتان تميلان للون البنّي قليلاً، لكن يجب على من يراني أن يدقق فيهما كثيراً ليرى ذلك اللون..

بشرتي ليست بيضاء تماماً ولا تندرج تحت السمرة.. ويكسو أنفي بعض النمش.. لو طُلب رأيي في هذا الوجه الذي أراه، فأنا أقول إنني لا أحمل أي لمحة يمكن أن توصف بالجمال.. لكن من يهتم؟.. رأيت الفتاة الناعمة تقف عند باب غرفتي بقلق.. ومع نظراتي، بدا أنها فهمت أنني أدعوها للدخول، وهو ما لم أفعله، فأسرعت بالدخول ورمت نفسها على الكرسي الوحيد في الغرفة.. وبعد لحظة صمت وارتجافة واضحة في يديها، قالت دون أن تنظر إليّ "أأستِ خائفة؟"

نظرت إليها بتعجب لهذا السؤال، ثم أجبت "لن أصف نفسي بالخوف، لكنني متوجسة لما قد يحدث لنا في هذا الكويكب.."

فغمغمت الفتاة "لكنني خائفة.. خائفة حقاً مما قد يحدث لي.."

نظرت لها بتعجب متزايد، ولاحظت الرجفة تتزايد في جسدها وهي تقول "لقد رمونا في هذه المساكن بمفردنا.. فمن يضمن ألا يتعدى علينا أحد الموجودين هنا؟"

سألتها بتعجب متزايد "من تعنين؟ الحراس؟"

قالت وهي تنظر في عيني "ليس هم فقط.. جميعهم.. جميع الرجال الموجودين هنا"

تزايد استغرابي وأنا أسأله "ماذا تقصدين بالضبط؟.. إن لم تشرحي الأمر فلن أفهمك أبداً.."

فركت يديها بقلق، ثم قالت وأنا أرى الدموع تحتشد في عينيها "لقد رأيت بعضاً من ساكني هذه

المساكن ينظر لي بنظرات أثارت الرجفة في جسدي.. وقد ألقى أحدهم عليّ عبارات وقحة.. لا أدري..

أنا خائفة.. وهذه المساكن ليست مؤمنة جيداً.. ماذا أفعل لو حاول أحدهم اقتحام مسكني وأنتم نيام؟"

ظلت متعجبة من أمرها، فهبت واقفة وتشبثت بذراعي قائلة برجاء "هل أستطيع المبيت عندك الليلة؟

أرجوك.. أنا خائفة.."

غمغمت في نفسي "ما هذا المأزق الذي أنا فيه؟"

ثم قلت لها هازة كتفي "يمكنك ذلك طبعاً.. لم أشتري هذا المسكن ولن أستفيد من طردك منه.."

عادت تجلس على الكرسي صامتة للحظات، ثم قالت مطرقة "لن أزعجك البتة.. سأنام على هذا

الكرسي، وسأغادر مع أول النهار.."

قلت وأنا أنظر من النافذة للظلام في الخارج "لم أقل إنك تزعجينني.. يمكنك استخدام السرير فليست لي رغبة بالنوم أبداً.."

ابتسمت لي ابتسامة امتنان.. ثم نهضت بعد تردد لتستلقي على السرير وتتدثر بغطائه.. ولم تمض

لحظات حتى غرقت في نوم عميق.. أما أنا فقد حملت الكرسي حتى وضعته مقابل النافذة في

الغرفة.. فجلست عليه أتأمل السماء المظلمة خارجاً.. ثم في وقت محدد، علا صوت نفير من سماعات

منثورة بين المساكن معلناً انقطاع الأنوار، ولم تلبث المساكن كلها أن أظلمت تماماً، ليتعالى منها

بعض الأصوات المتندمة.. فتنهدت وأنا أرى السماء من بين الأشجار مظلمة لا ينيهاها إلا بضع نجوم

متفرقة..

كيف يتأتى لي النوم براحة مع كل ما حدث لي منذ استيقظت؟ يخيفني فقدانني لذاكرتي أكثر من

وجودي في هذا الكويكب.. من أنا؟ ومن كنت قبل مجيئي إلى هنا؟ هل كنت سجيناً؟ ماذا فعلت

لأسجن؟ لا يبدو أنني ارتكبت جرماً صغيراً فهذا لا يجعلني أستحق حكماً بالسجن المؤبد.. فما الذي

فعلته حقاً؟ ولماذا فعلته؟..

يخيفني أنني لا أعلم حقاً من أكون.. هل سأصدم عندما أستعيد ذاكرتي؟ هل أتمنى عودتها حقاً  
لأتعذب بذكريات لا أظنها سعيدة مادامت قد تسببت بقدومي إلى الكويكب؟.. أم أن الأفضل لي أن  
أبقى بلا هوية كي لا أتحسر على شيء وأنا أعلم أن خروجي، أو حتى فراري، من هذا السجن الكبير  
هو المستحيل بعينه؟..  
يبدو أن حياتي في هذا الكويكب ستطول حتى تصيبني بالملل..

\*\*\*\*\*

دماء.. دماء.. دماء غزيرة تغمر السجاد الغليظ..

مسدس في اليد وصدمة على الوجه.. الشعر الأبيض غارق في الدماء أيضاً..

وحتى النور القادم من النافذة بدا أحمر اللون بشكل بشع..

الهرب..

هذا هو الحل الوحيد..

\*\*\*\*\*

لم يكن اليوم التالي بأفضل حالاً من السابق.. استيقظنا على صوت النفير المزعج الذي يصدح في كل  
مسكن دون تمييز.. نهضت فرقة من نومي فقد قضيت معظم الليل مستيقظة، حتى قررت أخيراً أن  
أغفو على الكرسي القريب وأتدثر بغطاء خفيف وجدته في المسكن.. لذلك كنت في نوم متعب عندما  
دوى النفير وأيقظني فجأة.. قضيت بضع دقائق أحاول استعادة هدوئي ودقات قلبي الفرقة عندما  
رأيت الفتاة التي استيقظت قبلي قد خرجت لتوها من الحمام بشيء من الانتعاش.. فقالت لي مبتسمة  
“صباح الخير.. أرجو ألا أكون قد أزعجتك باستيلائي على سريرك..”  
لم أرد أن أزعجها برد مفحم، فصمتُ وأنا أنهض وأتوجه للحمام بدوري لأغسل وجهي علي أنتعش

قليلاً.. أغمضت عيني وأنا أحاول تذكر الحلم الذي انقبض له صدري البارحة.. لكن تفاصيله بدت لي مبهمّة تماماً.. كل ما أذكره أن فزعي عند استيقاظي لم يكن بسبب النفير المزعج فقط..

بعد لحظات قصيرة خرجنا من الغرفة لنرى وسط الساحة البقية يقفون محيطين ببضع حراس بأسلحتهم.. يبدو أن الحراس لا يتخلون عن الأسلحة في كل الأوقات خوفاً من ثورة السجناء، الذين هم نحن، وقد لاحظت بضع رجال منهم يحرسون المسكن الليلة الماضية من بعيد.. ناهيك عن أجهزة المراقبة التي وجدناها متناثرة على أعمدة قريبة تكشف المسكن والمساحة المحيطة به تماماً..

كان الحراس الواقفون وسط الساحة يناولون السجناء إفطارهم الموضوع في علب متوسطة من صناديق محملة على أحد المركبات الخاصة بالمؤسسة.. لن أتحدث عن نوعية الإفطار، لكنه كان أفضل مما توقعت وإن لم يكن بالكمية الكافية.. وقد بدا الامتعاض على وجه الرجل الأجش وهو ينظر له، وحاول إقناع الحراس بإعطائه واحداً آخر دون فائدة..

بعد وقت قصير استغرقه إفطارنا، تم اقتيادنا جماعة واحدة، يحيط بنا الحراس، من المسكن وعبر الغابة المحيطة بنا، في مسير دام ربع ساعة.. استغربت أنهم لم ينقلونا بالمركبات، لكن ربما يودون توفير نفقات المركبات التي ستنقل هؤلاء السبعين سجيناً..

كانت الغابة حولنا متباعدة الأشجار.. تحوي العديد العديد من الأشجار.. بعضها معروف ومشابه لما على الأرض.. وبعضها غريب ويبدو مهجناً، بأوراق عريضة وضخمة متباينة الألوان، تتراوح بين اللون البنفسجي والأحمر، كشجيرات الزينة الشائعة على الأرض.. وبعضها أوراقه عادية لكنها خضراء قاتمة أو فاقعة بشكل متنافر..

زاد هذا تعجبي من حال الكويكب الغريب.. لو أنه قد سمح للزوار بالقدوم إليه وتمت تهيئته للسياحة فسيدير عليهم دخلاً مروعاً.. لكن يبدو أن اهتمامهم منصب على المنجم والثروة التي تسيل منه بلا انقطاع..

وبعد فترة من السير سمعت الفتاة قربي تتساءل بهمس "حتى الآن لم يفسر لنا أحد ما يجري في هذا الكويكب.. كيف يمكننا العيش فيه دون الحاجة للخوذات وأجهزة التنفس؟"

قلت متلفتة حولي "لا أعلم عن هذا شيئاً.. ولا أعتقد أن أحد الحراس سيجيبنا بأريحية لو حملنا أسللتنا إليه.."

وجدت أثناء التفاتي الرجل الهادي ينظر لنا باهتمام، ولما التقت عينانا بادرني بالقول "في الواقع، ما أذكره عن هذا الكويكب، أنه غير صالح لعيش الإنسان.. لذلك، لابد أنه خضع لتغييرات شاملة وجذرية ليصبح بهذا الشكل.."

تساءلت بدهشة "إذاً لماذا لم يتم الاكتفاء ببناء قبب هوائية كالتي على القمر بدل بذل أموال طائلة



لتغييره بهذا الشكل؟"

أجابني "أولاً، بناء قنب هوائية لن ييسر العمل على الكويكب، فسنظل بحاجة لأردية فضائية ومخزون من اسطوانات الأكسجين، مع المخاطر التي يمكن حدوثها عند نفاذ الأكسجين أو حدوث ثقب بالأردية.. بالإضافة لصعوبة العمل بسبب قلة الجاذبية التي تعادل ثمن جاذبية الأرض.."

فتساءلت وأنا أشير لما حولنا بتعجب "وهذا هو الحل؟"

هز رأسه إيجاباً "هذا ما استقر عليه الخبراء.. لقد قرأت فيما سبق تقريراً مفصلاً عن الكويكب، وإن غابت تفاصيله إلا أن معلوماته العامة لم تمسح من عقلي بعد.. لقد أجرى العلماء تجارب طويلة للوصول للطريقة المثلى للتحكم في جاذبية الكويكب.. وأعتقد أنهم يستخدمون جهازاً ضخماً وضع في موقع محسوب بدقة في الكويكب، وعلى عمق مدروس فيه.. ومع الجاذبية، كان وجود الغلاف الجوي لا يعدّ مشكلة إذ إن الكويكب يملك غلافاً جويّاً بالفعل، وإن لم يكن يشابه غلاف الأرض كثيراً.. بقيت مسألة الهواء وتأقلم البشر عليه.. وقد كان التقرير الذي قرأته غامضاً من هذه الناحية.. إذ ذكر أن العلماء وجدوا حلاً جذرياً لهذه المشكلة ولم يذكر ذلك الحل"

فسألته بتفكير "وماذا عن القمر؟ لقد لاحظت البارحة بعد انطفاء الأنوار وجود قمر في السماء والأشجار تغطي معظمه.. فهل كان الكويكب يملك قمراً؟"

قال نافياً "لا يمكن ذلك.. ما عرفته أن هذا مجرد قمر صناعي يستخدم للمراقبة والاتصالات، وقد تم تزويده بأسطح عاكسة لنور الشمس كي تعمل كبديل للقمر.. فليل الكويكب حالك السواد، ووجود شيء من النور يبدد العتمة أفضل لمن يعيشون على سطحه"

قلت بتعجب تام "هل دفعوا تلك الأموال الطائلة لأجل هذا الكويكب؟"

قال متلفتاً حوله "بل لأجل ما يحتويه في باطنه، وهو لا يقدر بثمن.."

نظرت حولي قليلاً وأنا أتفكر في حديثه.. يا لهذا الكويكب الغريب.. تم إخضاعه بسطوة الإنسان المغرور دائماً.. فهل سيرضى بذلك؟ ألن يغضب؟ ألن يثور؟.. ترعبني فكرة مثل هذه..

بعد كل ذلك السير، تبدى أمامنا المنجم الذي سنعمل فيه منذ الآن فصاعداً.. تباعدت أشجار الغابة وبت خلفها مساحة شاسعة من المسطحات الصخرية ذات اللون البني المحمر، كأغلب صخور الكويكب، تتناثر فيه التشكيلات الضخمة والهوّات العميقة.. وعلى مبعده منا، وسط تلك المساحة، رأينا المنجم الذي كان عبارة عن حفرة عميقة وضخمة، تنحدر كمدرجات لعمق الكويكب.. ومنه وإليه الكثير من الخطوط التي تشبه سكة القطارات القديمة، ومهمتها نقل حاويات ضخمة مصفحة بعد أن تعبأ بالمادة الخام، وتنقلها إلى المستودعات المخصصة لتخزين تلك المادة تمهيداً لنقلها إلى المصانع المسؤولة عن تهيئتها للاستعمال الاقتصادي على القمر..

بدا المنجم ضخماً ومهيباً.. وهو أول منجم أراه، أو أذكر رؤيته، على الطبيعة.. ولم يساعد تشدد الحراسة حوله على التقليل من هيئته.. يبدو أنهم محتاطون كثيراً في الحفاظ على المناجم.. ورغم أن الكويكب لا يسكنه إلا التابعون للمؤسسة من إداريين وحراس وسجناء، لكنهم فوق ذلك احتاطوا بتشديد الحراسة على المنجم وإحاطته بسور مكهرب، رغم ضخامة تكلفة ذلك مع مساحة المنجم التي تشغل حيزاً واسعاً جداً من المنطقة..

عند وصولنا إلى بوابة المنجم القريبة منا، قاموا بتفتيشنا جيداً والتأكد من هوياتنا وتمير السوار على يد كل منا قرب جهاز صغير، يبدو أن مهمته تسجيل دخول صاحب السوار في ذاكرته.. تساءلت في نفسي إن كان ذلك سيتكرر معنا كل يوم، مما يجعل الأمر مملاً..

سمعت الرجل الأجش يقول في تلك اللحظة "هل سنمر بهذا كل يوم؟ يا للسخافة"

ابتسمت في سري لتعليقه الذي جاء في لحظة تفكيري به.. لكن لم أعلق بكلمة، كما لم يفعل أحد حولنا، ونحن نتجاوز الحراس عند البوابة وتدف الساحة المحيطة بالمنجم.. تفرق جمعنا بعد أن ابتعد القدماء منا إلى أعمالهم التي تعودوا عليها ولا يبدو أنهم يبدلون أبدأ.. بينما وقفنا نحن الجدد في جانب المكان وظللنا ننظر حولنا للوجوه التي لم يبد عليها أي راحة وسرور.. يبدو أن هذا سيكون حالنا قريباً جداً، ولم يكن هذا مشجعاً أبداً..

وجدنا الحراس يقومون بتقسيمنا إلى مجموعات أصغر، ويبدو أن هذا قد تم مسبقاً بالنظر إلى قدراتنا الجسدية.. ولذلك وجدت أنني، مع اثنين آخرين، قد انفصلنا عن البقية، وقادنا أحد الحراس إلى قلب المنجم..

رؤية المنجم من بعد لم تكن أكثر إبهاراً من رؤيته من قلبه.. بحجمه الكبير والطريق اللولبي النازل للأسفل حتى يصل لقاعه الذي يقل عن السطح بـ ٣٠٠ متر على الأقل.. نزلنا باستخدام رافعة عبارة عن قطعة مسطحة من الحديد، وباستخدام إحدى الرافعات عليها، فإنها تنزل بشكل تدريجي ومائل حتى تصل القاع المسطح والواسع للمنجم، حيث تربض الحاويات الضخمة والتي تنتظر تعبئتها بالمادة الخام.. إذ يبدو أن حجمها لا يسمح بإدخالها إلى قلب المنجم، والاكتفاء باستخدام عربات أصغر تسير على سكك خاصة بها وتدف من بوابات المنجم المختلفة المؤدية تحت الأرض في أنفاق طويلة..

بعد وصولنا للأسفل، جعلنا الحارس نحمل بعض المعدات اليدوية، ثم طلب منا دفع إحدى العربات الثقيلة نوعاً على السكة باتجاه المدخل الذي كتب جواره على لوح صغير رقمه المكون من حرف انجليزي ورقمين..

شيئاً فشيئاً تقدمنا في النفق الذي بدأ يظلم شيئاً ما ولا ينيره إلا أنوار متفرقة على طوله.. بدا النفق طويلاً طويلاً جعلني أتساءل عن المدى الذي يشغله تحت الأرض، مع بقية الأنفاق التي يبدو أنها

تشكل شبكة كبيرة غير ظاهرة للعيان في الأعلى.. فبعد بعض السير تقاطع نفقنا مع آخر، ورأيت في ذلك النفق رجلين يدفعان عربة أخرى محملة بأحجار سوداء كبيرة، تعكس بعض النور مما يجعلها تلمع قليلاً، ولا تشبه الفحم الأرضي أبداً..

بعد بعض الوقت، وقف بنا الحارس في بقعة أوسع قليلاً، وأشار لجهة منها حيث تتداخل الصخور العادية مع الأحجار السوداء وهو يخبرنا بكلمات مختصرة عن طبيعة عملنا وما يجب أن نفعله، أو لا نفعله.. باختصار، كان عمل الشابين معي هو استخراج الأحجار السوداء من بين الصخور، والحرص على عدم تفتيتها وإبقائها كأكبر حجم ممكن.. بينما عملي هو في التقاطها، وتخليصها مما علق بها من بواقي الصخور، وتعبئة العربة بها.. ومتى ما تمت تعبئتها أقود العربة عائداً للخارج وأسلمها لمن يستخرج ما بها وينقله للحاويات الضخمة، فيما أعود بالعربة الفارغة لموقعي الأول..

بصمت، بدأنا عملنا بشيء من التردد والحارس يقف قريباً يراقبنا، ولا ينسى زجرنا إن بدا منا أي خطأ أو تهاون في العمل..

كان الجو حاراً نوعاً ما، جافاً ويثير التعب بسرعة.. لكن لا يحق لنا الشكوى بالطبع ونحن ننهمك في عملنا محاولين عدم التفكير في طول الساعات التي سنقضيتها في هذا العمل المتعب.. ورغماً عني تساءلت عن حال الفتاة الرقيقة في هذا العمل، وهل ستقدر على الصمود حتى آخر النهار أم لا؟.. شعرت بضيق في أنفاسي وأنا بطبيعتي أكره البقاء في مكان يخلو من التيارات الهوائية ولو على شكل نسيمات خفيفة.. أكره الأماكن التي يظل الهواء فيها معلقاً كثيفاً تكاد تلمسه بيدك.. لكن من أين لي بهذه الرفاهية في هذا المكان وهذه الظروف؟..

\*\*\*\*\*